دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني

فيما يرى النائم

رواية

صفاء حسين العجماوي

نوع العمل: رواية

اسم العمل: فيما يرى النائم

اسم المؤلف: صفاء حسين العجماوي

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى ستمبر ٢٠١٧

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: أحمد علي

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura٢٠١١.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura٢٠١١@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

فيما يرى النائم

نوفيلا

صفاء حسين العجماوي

الأهداء

إلى متابعي على الشبكة العنكبوتية، و الواقع.

إلى جروب أسرار الكتب.

إلى الكاتب محمد عصمت الذي جعلني أتابع حلقات رعبه اليومية.

إلى محبي الرعب في كل مكان.

مقدمة

بعد فجر يوم من أيام شهر يوليو (تموز/ جويلية / يوليوز) انتابني كابوس بشع. أثر عليَّ عضويًا ونفسيًا لمدة تزيد عن أسبوع. كان على تجاوز تأثيره الكاسح عليَّ، فما كان مني إلا أنني، وبمشورة بعد الأصدقاء بدأت في كتابة "فيما يرى النائم" على هيئة حلقات على موقع التواصل الأجتماعي "فيسبوك".

في البداية كانت الحلقات تحمل نسبة كبيرة مما مر بي، ثم بدأت تقل حتى أنعدمت في المنتصف، وانتهت باحداث خالية من الحقيقة.

تجاوب الكثيرين مع الحلقات، وطالبوا بنشرها ورقيًا أو إلكترونيًا، ولهذا فهي عمل كامل بين يديكِ عزيزي القارئ.

أرجو أن ينول هذا العمل رضاكم.

في انتظار أرائكم على حسابي أو صفحاتي على موقع التواصل "فيسبوك"

١

بدأ كل شيء بكابوس.

يا ألهي يبدو أنني، وكالعادة لم اجد التعبير عما أريد، ولكن لا يهم، فهذه المخطوطة ليس الهدف منها كتابة عمل أدبي. أنها مجرد فضفضة أشار عليَّ بها طبيبي الخاص، لأخفف عن نفسي العبء الذي سببته الأحداث السابقة.

منذ تلك الأحداث الجسام المتتابعة في سرعة رهيبة يناديني الجميع بالروح الشفافة.

يا له من لقب!

ابغضه كثيرًا لما يحمله من سخريتهم لي. لا يعلمون كم كنت أتمنى أن لا أمر بتلك التجربة القاسية.

التجربة... وأي تجربة... أن يبدأ كل شيء بما يراه النائم.

أتعلمون أن النائم يمر بمراحل عدة للنوم أحداها الأحلام التي غالبًا ما ينساها الإنسان فور استيقاظه. غير أن بعض الأحلام تظل عالقة في الذهن لفترة بعد الاستيقاظ.

أحلام البشر تنقسم لرؤى، وأحلام، وكوابيس، فأنت تتمنى دائمًا أن تحتفظ بتفاصيل الرؤى، ربما تسعد باحتفاظك بجزء من أحلامك، لكن دائمًا ما تكره أن تحتفظ بذكرى الكابوس.

فما بالك بكابوس يترك أثاره على جسدك؟

فما بالك بكابوس يدفعك لخوض غمار مغامرة كريهة تحمل رائحة الشر المطلق؟

فما بالك بكابوس يغيرك حتى لم تعد تعرف من أنت؟

هذا هو كابوسي الذي هدم أركان حياتي، وأحال ليلها نهارًا، وجعلني أخشى النوم كخشية الموت ذاته.

ها أنا استطرد خارج الموضوع ليس كعادتي هذه المرة، ولكن لخشيتي الاقتراب من تلك الذكرى المريرة لذلك الكابوس المفزع.

وأني اتسأل هل يجدي تهربي؟

هل خوفي من الاقتراب لتلك البقعة المظلمة في ذاكرتي سيظل للأبد؟

لقد أخبرني طبيبي الخاص أن الكتابة عن هذا الامر هي أحد العلاجات الفعالة لتجاوز تلك الأزمة، وكان صارمًا في ذلك.

يبدو أنه لا مفر من ذكر ما حدث.

هيا يا عزيزتي تجاوزي فزعك.. ألتقطي نفسًا عميقًا.. وهيا لنبدأ. كأننا لم نكتب عن ذلك منذ سطور.

انعم الله على البشر بنعمة النسيان، والتي يبدو أنه معطلة عندي هذه الايام. ربما كان ذلك راجع لمقدار الرعب الذي شاهدته جعلها محفورة في خلاياي المخية الرمادية.

٢

منذ شهرين كانت الساعة تجاوزت الرابعة صباحًا. انـهيت صلاة الفجر، وتوجهت إلى الفراش. لحظات وبدأت في السقوط السريع لمرحلة الاحلام.

وجدتني فيما يرى النائم غافية مستلقية على فراش ما، وعلى غفلة اقترب مني شخص ما وجهه مخفي في الظل. كان يقترب ببطء كأنه ظل يزحف على الجدار. الغريب أني شاهدته يسبح تجاهي، لم أشعر بالخوف حينـها بل مجرد فضول.

ترى ما ماهية هذا الكيان السابح في فضاء حلمي؟

أجل كنت أعلم أنه مجرد حلم. لذلك غلبني الفضول لأعرف ما هو. لم أفكر في تحليل الأماكن والموجودات من حولي. أنه مجرد حلم عادي، ولكن سؤال ظل يؤرقني.

ما هو هذا الكيان الزاحف على الحائط؟

ولما يسير بهذه الطريقة؟

أقترب حتى وصل لمخروط الضوء في الحلم ليظهر رجل ستيني أشيب مألوف الوجه. ما أن رأيته حتى شعرت بالطمأنينة التي لا أدري لما شعرت بها، وتناسيت سؤالي عن

طريقة حركته. لحظات وأصبح فوقي تمامًا، ولكنه يقف خلف ظهري. لا أعرف كيف رأيته، لتظهر مرآة أمامي يرتسم عليها انعكاس صورته، ثم هجم عليَّ واضعًا كلتا يديه على أضلعي اليمني، ويضغط بقسوة.

احساس بشع، وآلام مبرحة. عظامي تكسر تحت وطئة ضغطه الكاسح. أشعر بصرخات نفسي تردد في جوفي فزعة. لا تستطيع أن تخرج من فمي. جسدي متخشب يمثل النوم، وهو يتعمد زيادة الضغط على أضلعي. الآلام تجتاحني في الواقع. احاول الاستيقاظ، ولكني لا استطيع. ليس بي قدرة على ذلك. أني أزحف تحت وزن كفيه الذي يماثل وزن جبل من الحديد يرتكز على أضلعي. اشعر ببعض الموجودات من حولي. لساني يردد الذكر، ولكنه لم يخفف ضغطه ولو شعرة. دب الفزع في قلبي.

كيف لأي كيان مظلم أن لا يخشى من ذكر الله؟

هذا يعني أنه لا يريد إيذائي.. أليس كذلك؟

لا أظن أن هناك تفسير أخر.

لكن ضلوعي تكسر. لا أحتمل أكثر. بدأت بالزحف شديد البطء حتى أن أكسل سلحفاة في العالم، وأطولها عمرًا، وذات قدم مكسورة لو سابقتني لفازت باكتساح.

٣

زحف مؤلم طويل. أرى أنوار تغمر غرفة بها أهلي. أشد من همتي حبلًا أزحف ممسكة به. ضغطه لا ينتهي، وأنا أزحف ولساني يردد الذكر، حتى سقط عليَّ أضواء الغرفة بدلًا من الممشى أمام الغرفة. أنتبه أهلي فركضوا نحوي.

رفع والدي يديه عني، وسأله: ماذا تريد منها؟

وكانت أجابته من أغرب ما يكون.

كان يتحدث بلا صوت، ولكني أسمعه بوضوح: أني بحاجة إلى مساعدتها.

سأله أبي باهتمام: فيما تساعدك؟

أجابه دون أن يحرك شفتيه: أن تجد من قتلني.

فزعت، وانتفضت، فزادت آلامي، وتملكني الرعب الشديد.

يا ربي الرحيم.. أنه شبح قتيل، والكارثة أنه يريد مساعدتي أنا.

ولما وقع عليَّ الاختيار؟

ما علاقتي أنا بالقتيل؟

أجل شكله مألوف، لكن هذا لا يعني أني أعرفه.

ماذا أفعل؟

آلامي تمزق كياني، ولكن هذا لا يقارن بخوف من هذا الشبح.

تجاوز أبي الموقف سريعًا، حيث سأله مستنكرًا: وهل من يريد مساعدة يؤذي من ينشد منه المساعدة؟

استنكر الشبح أنه أذاني، وسألني متعجبًا: هل أذيتك حقًا؟

ألجمني رعبي، فلم أجبه. نظر لي بقوة، وطلب مني مرافقته. لم أمتلك القدرة على القبول أو الرفض. فذهبت معه، وخلاياي تئن من الآلام المبرح دون أن أنبس بشفه، وأمسك ضلوعي اليمنى.

كان يطير خلفي متأخر عني بخطوة متخفي عن الجميع حتى يحسبني الرائي أني أسير بمفردي، وعندما يجدني أحدث أحد، أو أمشي ببطء من قسوة الآلام يمسك بأضلعي المكسورة ضاغطً عليها حتى أتحرك معه بسرعة.

ظللنا هكذا حتى ذهبنا إلى مطعم، فتظاهرت بأني أريد شراء وجبة، وانتظرت في الصف الطويل المنتظر، وأخذت أتابع المطعم، وما يدور من حولي، فوجدت من التصرفات ما

يحير الرائي. أن معاملاتهم غير طبيعية، كما أن لسانهم بذئ. قبل أن اتبين ما يدور ضغط الشبح على أضلعي بقسوة، وسحبني إلى مكان ما لا يراه من يدخل المطعم لأول مرة.

على صغر حجم المطعم، وكثرة رواده التي تشعرك بالاختناق. كان الجميع يعمل بحماس مبالغ فيه حتى ذلك المكان الخفي. على يسار المدخل هناك باب مكون من جزئين من الخشب المعشق. دخلنا منه لنجد غرفة فسيحة جدًا ممتلئة بالمكاتب التي قللت من حجم الغرفة بشدة. قادني بضغط من يده الكاسح على أضلعي اليمني التي مزقت أحشائي ليوصلني إلى مكتب مهجور عليه أوراق مبعثرة، ومصباح للإضاءة المكتبية.

جلست على المكتب لأتأمل المكان، وأتابع الجالسين من حولي المنشغلين بالحديث. كانوا يتصرفون كأنهم لا يروني، فأحدهم يواليني ظهره جالسًا على سطح مكتبه متحدثًا في الهاتف. شعرت بالسعادة لأني خفية عنهم. نظرت إلى وجه الشبح استأذنه في أشارات أن أفتش في الأدراج، فهز رأسه علامة إيجاب.

بيد متماسكة وجسورة بدأت البحث المحموم. أخرج كل ما في جوف المكتب من أوراق. أمرر عليها عيني باحثة عن أي علامة تفيد بحثي دون جدوى. انهيت البحث ونظرت إلى الشبح بغضب من كل ما يدور.

ما الداعي في أن يعذبني، ويكسر أضلعي؟

يبغي مساعدتي. عن أي مساعدة يتحدث؟

لقد قادني إلى هنا دون هدف واضح

أقضي الكثير من الوقت في البحث بتلك الأوراق دون جدوى.

أحبس صرخاتي في حلقي متألمة غاضبة خوفًا من بطشه.

يا لها من مشاعر متداخلة متضاربة تجتاحني!

أشار لي أن أنظر إلى يميني. ألتفت إلى حيث أشار، فإذا بسيدة ذات منظر ملفت. ملابسها مبهرجة، ووجهها ملطخ بالأصباغ. ما أن دققت في ملامحها حتى تملكني الفزع، واستيقظت مرتعبة متوجعة.

٤

هل أنا مستيقظة الآن؟

لا أظن. أضلعي تأن كأنها كسرت.

هل لازلت نائمة؟

لا أعتقد، فلا رؤية على الأطلاق.

أين أنا بالضبط؟

عالقة بين نوم ويقظة. هناك همسه من الشبح لا أميزها.

يا ربي الرحيم أنقذني!

فتحت عيني بسرعة لا تتناسب مع شخص يستيقظ من نومه. حاولت أن أعي الموجودات من حولي. أنا مستلقية على فراشي لساني يردد التسابيح بتلقائية. آلم كاسح في خاصرتي وضلوعي اليمنى. لا استطيع النهوض، ولكني بحاجة لأن أذهب إلى أبي. زحفت لمدة عشر دقائق.

يا للعجب فراش بعرض المتر أحتل ربعه أزحف لعشر دقائق حتى أصل لطرفه لأنهض. في وقت أخر كنت لأعجب، ولكن آلام ضلوعي تجعل زحفي عملية شديدة القسوة، حتى

أن تسلق قمة أفرست أكثر سهولة. تحاملت على نفسي بصعوبة بالغة لأقف، غير أن الألم لم يترك لي فرصة لأسكاته، فصرخ بشهقة عميقة طويلة.

وقفت لعشر دقائق أخرى احاول تمالك نفسي، غير أن عملية التنفس ذاتها أصبحت شاقة. تمرينات نفس بطيئة خففت من حدة الألم. أمسكت بأضلعي أطمئن أنها في مكانها لم تكسر. ولله الحمد كانت سليمة. تحركت ببطء شديد يجعلني أخسر سباق مع سلحفاة مصابة بكسر في الأرجل. اسير خطوة واتوقف لأنظم أنفاسي اللاهثة.

ها هي ذا أمي. أنادي عليها، فتأتني متعجلة فالوقت لا يحتمل كلام فجميعنا ذاهب إلى العمل. نظرة منها إليَّ جعلتها تسأل ما بي بقلق. قصصت عليها كابوسي. تغيرت نظرات أمي، وشحب وجهها.

سألتها مرعوبة: ماذا هناك؟

ردت بخوف: لقد توفى منذ يومين جارنا الساكن بالطابق الأول.. وقد ذهبنا لعزاء زوجته أمس.

أمتقع وجهي من الرعب.. ترى هل هذا الشبح هو جاري؟، ولكني لم أرى جاري هذا سابقًا أو غيره من الجيران، فأنا لا أختلط بأحد.

أقبل أبي علينا فوجدنا شاحبتي الوجوه. سألنا عن السبب، فقصت والدتي عليه كابوسي. استنكر والدي استنتاجنا، وأخبرني أنها اضغاث أحلام. لم أجادله، وتوجهت إلى دورة المياه لأغتسل، واتوضأ.

وعندما توجهت لصلاة الضحى سمعت صوت أبي المعاتب لأمي على بثها الرعب في نفسي، وتجاوبها مع مخاوفي. انهيت الصلاة فتقدم والداي نحوي، ووضع يده على رأسي وبدأ يتلوا القرآن ويحصني. حلت السكينة بقلبي، ولكن الآمي لم تسكن. ابتسمت وأنا اتماسك ظاهريًا، ثم ذهبت لأخذ حقيبة يدي وأتوجه إلى عملي.

كانت آلام ضلوعي لا تتوقف حتى أني خشيت أن ضلوعي كسرت. اتصلت بطبيبي الخاص لأستشيره. بهدوء وصبر استمع لي ما يزيد عن الربع ساعة، ثم قال لي: أظن أنه شبح جارك، ولكن يجب أن نتأكد.

سألته ببلاهة: وكيف ذلك؟

رد ساخرًا: تظاهري بأنكِ ذاهبة للعزاء، وابحثي عن صورته.

كان حله منطقيًا، ولكن قلبي كان يرتجف خوفًا من فكرة دخولي شقة جاري المتوفى.

ظننت بادئ الأمر أن خوفي لأن هذا المكان توفيَّ فيه جاري، غير أن قلبي أنبأني أن سبب خوفي شيء أخر غائب عن عقلي الواعي، ولكن مترسخ في عقلي الباطن مثير فزعي.

٥

حاولت تجاهل خوفي، وتناسي الكابوس غير أن آلام ضلوعي لا تسمح بذلك. لا أدري كيف مر عليَّ اليوم، فأنا لم أعي من أنا ألا عند عودة أمي إلى البيت، والتي ركضت نحوي تحتضني. دفنت نفسي في صدرها باحثة عن الأمان، وأنا أكتم شهقات الآلم بداخلي حتى لا أرعبها.

أن كان كابوسي مجرد خرافات شخص نائم، لماذا لا ينتهي هذا الآلم البشع؟

وأن كان ما شاهدته حقيقة، فلماذا أنا التي جاءها لتساعده؟

ما الذي أملكه يؤهلني لذلك؟

هل هو جاري فعلا؟

أم شخص أخر تعرفه ذاكرة الصور بعقلي، وغائب عن مركز التذكر؟

أخدت الأسئلة تدور، وتتكاثر في رأسي حتى غلبني النوم.

نوم سريع، كأنه سقوط في بئر سوداء عميقة، وأنا خفيفة كشبح طيفي يندفع بأقصى سرعة دون أن يستطيع أن يكبح نفسه، ولكنه مطمئن أنه لن يصاب بسوء. في نهايته

وجدت شبح الرجل الغامض، حاولت الهروب منه بالطيران غزير أنه لاحقني ممسكًا بي من خاصرتي، ضاغطًا على أضلعي المكسورة. ضغطة واحدة أوقفت تنفسي، ومزقت داخلي. سكنت مكاني فسحبني بسرعة ناحية اليسار حيث المرأة المبهرجة التي أثارت فزعي، وهمس بصوت قادم من جوف الأرض: أنها قاتلتي... أنها زوجتي

استيقظت بشهقة رعب تبعها سعال قوي لدقيقتين. تمالكت نفسي فوجدتني على فراشي، وحيدة وآلام أضلعي لا تحتمل. صدى صوته المجوف، وهو يقول زوجتي لايزال يضغط على طبلة أذني. بكثير من الجهد والآلام استعدت القدرة على حواسي، وبدأت في استجواب ذاكرتي المنهكة من الفزع.

أين كنت قبل أن أجد نفسي على فراشي؟

هل صحيح أنني نمت بين ذراعي أمي؟

أين جميع من في البيت؟

ألم يسمعوا شهقتي المريعة؟

هناك شيء خاطئ بالتأكيد.

أنت ذاكرتي من جهد التذكر حتى عادت بي إلى ساعتين خلت عندما عدت باكرًا من عملي، ولم يكن أحد بالمنزل لأنام. ترددت كثيرًا قبل أن أنام خوفًا من عودة الكابوس المرعب. لكن غلبني ونمت، ويبدو أنني استيقظت والكل لم يعد إلى المنزل بعد.

ماذا أفعل حتى يعودوا؟

لا يمكنني أن أنام مطلقًا.

هل أقرأ قليلًا؟

أم أعد طعام الغذاء؟

ولكن أضلعي تؤلمني؟

٦

بينما أنا أجاهد نفسي في القيام بعمل مفيد عادت أمي وأخوتي، فنهضت لاستقبالهم ولكن ببطء شديد. لا يعجله سوى رغبتي في أن أكون معهم بعيدًا عن هذا الشبح الرهيب، الذي تجاوزت قدراته عالم الظلام ليكن له قوة ملموسة في عالمنا المدى.

بينما كنت أساعد أمي في أعداد طعام الغداء. سألتها بشكل عارض عما حدث عندما ذهبت لتقدم واجب العزاء في جارنا المغفور له بإذن الله.

فأجابت أمي، وهي تمسك بالسكين لتقطع البطاطس لشرائح رفيعة: كان أغرب واجب عزاء قمت به.

ثم ألقت بالسكين، ووضعت يدها على رأسها، وهي تكمل متذكرة: عندما دخلت إلى مسكن المرحوم حيث المكان المخصص لسيدات، وجدت الجميع يتحدث كأنها مناسبة عامة. لا صوت لقرآن يتلى، ولا بكاء أحد، ولا همهمات التهدئة المعهودة. فقط ضوضاء الثرثرة العادية.

ألتفتت إليَّ، وأردفت: سألت عن زوجة المتوفى، فوجدت سيدة على وجهها المزين بمساحيق التجميل تتوسط الجميع. تردد بشكل هستيري " يجب أن أترك تلك الشقة.. لا يمكنني أن أعيش فيها لحظة واحدة.... أريد بيعها والسفر للحاق بابني".

أمسكت أمي بالسكين، وعادت لما كانت تفعله، وهي تقول عجب: الغريب أن جميع الموجودات تجاهلنها جميعا إلا امرأتان ظلتا يهدئن من روعها، ويعداها بأنهما سيساعدنها في بيع الشقة.

سألتها، وهي تعطيني البطاطس المقطعة لأضعها في محلولها الملحي: وكيف مات زوجها يا أمي؟

ردت ببساطة، وهي تسلق المعكرونة: بالفشل الكلوي كما سمعت.

ثم ألتفتت إليَّ، فوجدتني شاحبة الوجه، فظنت أنني لازلت متعبة. أمسكتني من يدي، وسحبتني خارج المطبخ، وهي تقول: هيا أذهبي فاستلقي في فراشك يبدو أنكِ لازلتِ متعبة. هيا.

بخطوات مرتبكة ذهبت نحو غرفتي، وأنا أتسائل ترى هل جرفني خيالي لهذه الدرجة؟

لقد تخيلت جريمة قتل بطلتها الزوجة، ويا لسخرية القدر. لقد مات موتة طبيعية. لا داعي لأزعج نفسي أكثر من ذلك. سأخبر طبيبي بما علمته.

هاتفت طبيبي، وقصصت عليه كابوسي الجديد، وما توصلت إليه من حديثي مع أمي. كان يستمع بصبر كالأب المنصت لطفلته الصغيرة تحكي له مغامراتها الخرقاء. فرغت جعبتي من الحكايات والكلمات، فسكت منتظرة رده.

سألني ببرود مستنكرًا: يا بلهائي الكبيرة ألم يراود عقلك الصغير القليل والقليل جدا من الاستغراب؟، أم أن خوفك من المواجهة جعلك تتقبلين هذه الرواية المفككة؟

أجبته بغضب من نفسي: ربما كانت الثانية

ثم صحت: ولكني لست بلهاء

فسألني بغيظ: وكيف تسمين هذه الهراءات التي تفوهتي بها؟ أنها لا تصدر ألا من بلهاء.

سكت ولم أنبس بحرف، فتمالك نفسه قليلًا، ثم بدأ يشرح كمعلم لمرحلة الروضة يفهم تلميذه المشاغب ما يدور: أعيريني سمعك، وأشحذي عقلك. أن تصرفات تلك الأرملة تدعوا إلى العجب العجاب، فهي تحضر العزاء متبرجة، تحاول بيع شقتها، وهي لازالت بالعدة. لم تظهر أي علامة حزن لفقد زوجها. لم تعد مكان العزاء بالشكل المتعارف عليه، فلا ترتيل قرآن، ولا أحترام للمتوفى.

ثم سأل بضيق: هل فهمتي ما أعنيه؟

همست بأجل، ثم سألته: هذا يعنى أن أدعائها بأن سبب وفاته هو الفشل الكلوي ربما كان باطلًا؟

قال ببرود: أحتمال وارد، وهذا يستلزم أن ترينها وترى صورة المتوفى لنتأكد من شكوكنا.

أزدردت لعابي، وأنهيت المحادثة دون أن أضيف حرفًا أخر.

٧

في المساء أرتديت أكثر ملابسي رسمية، وأغمقها لونًا، وكانت تلك عملية شاقة لأبعد الحدود، لأنني لازلت أتألم من أوجاع أضلعي التي تقلل حركتي، كما أني أحب الألوان الزاهية، والملابس البسيطة. بعد ساعة كنت أرتدي بذة مكونة من بنطال كحلي، وجاكت أزرق، وبلوز وحجاب نيلي. لا أظنه زي مناسب للعزاء، ولكن ما باليد حيلة هذا المتوفر حاليًا. أصررت على أن تأتي معي أمي، والتي كانت تريد الرفض، ولكنها قبلت في النهاية. كانت مبررات أمي للرفض غير مترابطة، ولكني فهمت أنها تخشى تلك الأرملة.

بخطوات بطيئة يملأها التردد وصلنا إلى شقة المتوفى. طرقات قصيرة جدا من يد أمي على الباب، تبعها فتح الباب لأجد تلك السيدة التي أرعبتني في أحلامي تقف أمامي كما كانت تقف أخر مرة في كابوسي النهاري.

دائمًا ما يفضحني وجهي، فهو كالمرآة يعكس كل ما بداخلي مما يضعني في مواقف كارثية كالآن. آيات الفزع المنعكسة من روحي المرتعبة مرتسمة على ملامحي التي رأيتها تشتعل في عيني تلك الارملة.

حاولت تمالك أعصابي، وبصوت مرتعش قلت: البقاء لله.

ابتسمت مفسحة لنا الباب لندخل. ادخلتنا مشيرة إلى الردهة حيث الأرائك. ابتسمنا بمعنى من بعدك. أغلقت الباب وتقدمتنا حيث أشارت. ببطء كالمسجون يسير لينفذ فيه حكم الإعدام. متلفتة أستنجد بالأثاث، بالذكريات العالقة بالجو، بشبح ذلك الرجل ليدلني هل هو حقًا؟، أم هي هلاوس اجتاحت عقلي المجهد؟.

لا يمكن أن يكون هذا منزل لشخص متوفي حديثًا. الأزهار في كل مكان، موسيقي كلاسيكية تصدح من جهاز حاسوب موضوع على المنضدة. الأثاث معطر بروائح طبيعية، البخور موضوع على حافة النافذة. لقد عطرت المكان حتى نفد الأكسجين ذاته، فشعور الاختناق يلازم الرئة حتى لتشعر أن هناك ضغط على الحويصلات الهوائية لتنكمش على ذاتها.

حاولت التنفس ببطء وعمق، متحاشية النظر لجارتنا التي كانت أكثر تناقض من بيتها، فهي ترتدي بذة من الجينز تظنها تصغرها بأربع درجات على المقياس. تضع من مساحيق التجميل ما يجعلك تظنها ذاهبة إلى حفلة عرس،

وشعرها مصفف بعناية على أحدث الصيحات كأنها قادمة توًا من صالون التجميل. بيدها سيجار مشتعل.

كانت أمي تحدثها بما لم انتبه له، ولكن أظنها تقوم بواجب التعارف الطبيعي. كانت أسير خلف أمي وجارتنا، وأنا أتلمس ما حولي بنظراتي المتفحصة المتوجسة. فجأة شعرت بطيف يسير خلفي، وبضغطة قوية على أضلعي المتألمة. كتمت شهقة الآلم بصدري.

همسات في أذني اليمنى أن ألتفتي يسارًا إلى حائط الردهة القصي. ألتفت ببطء فوجدت صورة الشبح معلقة على الجدار مزينة بشريط أسود من الستان الناعم كعلامة يتيمة وجدتها في هذا المنزل تدل على وجود شخص مات حديثًا.

تسمرت قدماي، وتعلقت عيناي بالصورة. انتبهت السيدة، وقالت بصوت مرح: أنه زوجي المتوفي.

ألتفت لها مستنكرة، فأردفت: أني لأظنك متعجبة.

قولت بمحتدة قوة: أجل فمظاهر الفرح تتجلى في كل شيء هنا ما يتنافى مع حادث وفاة شخص يظن أنه عزيز عليكِ.

ابتسمت مشيرة لمقعد بجوارها، ثم التقطت نفس عميق من سيجارتها، وكتمته للحظة لتخرجه من أنفها وفمها على هيئة دفعات، ثم التفتت نحوي وقالت: أجل أنا فرحه لموته.

ثم سألتني بلا مبالاة: هل تردين أن تعرفي السبب؟

هززت رأسي إيجابًا، وقد جف حلقي من الانفعال.

٨

عادت لسيجارتها تمتصها بشراهة لا تدخنها، كنت أشعر بتوترها مع أنفاسها المتلاحقة. لم أحاول أن أستعجلها حتى لا تعزف عن الحديث مطلقًا. ثلاث دقائق يشق جدار الصمت دخان سيجارتها، وصوت أنفاسها العالي، ثم أخيرًا أن قررت سيجارتها أن دقائقها بين يدي صاحبتها قد انتهت، فلفظت أنفاسها الأخيرة بين أصبعيها الوسطى والسبابة، تاركة أخر احتراق لها يودع جلدها الناعم. انتبهت فزعة، وتركت بقايا سيجارتها في المنفضة الأنيقة الموضوعة أمامها، ثم ألتفتت نحوي، فوجدتني انتظر ردها بلهفة.

ابتسمت بسخرية من جانب فمها لتظهر علامة على خدها الأيسر لم تفلح مساحيق التبرج في إخفائها، ثم قالت: يبدو عليكِ اللهفة الشديدة، وكأنك ستلهمينني لتعرفي لما أنا فرحة لموت زوجي.

فزعت لقولها. ألهذه الدرجة أمعن وجهي في عكس ما بداخلي؟. تمالكت نفسي، ثم أعدت ترتيب ملامح وجهي لإجيبها: أنه العجب مما يدور أنبت اللهفة في قلبي لمعرفة السبب وراء كل هذا.

ضحكت بمرارة، ثم قالت بنزق: فرحت لأنه كان يعذب في مرضه الأخير. لقد كان الموت راحة له ولنا جميعًا.

حان دوري لأضحك من قولها هذه المرة بسخرية أثارت حفيظتها، ثم قولت: لا أظنك تصدقين ما تقولين. أنكِ تمزحين بالطبع.

غضبت جارتنا، ووقفت إذانًا بانتهاء المقابلة، وهي تقول: الدوام لله وحده. سعيكم مشكور، وذنبكم مغفور.

شعرت أمي ببوادر التمرد في نفسي، فأمسكت يدي تشدني ورائها، وهي تمتم لجارتنا معتذرة. مرت عيني على صورة المتوفى، ووقفت أمامه للحظة ناظرة لعينيه، وبداخلي أقسم له بأني لن أترك حقه، وسأقتص من قاتله. شعرت بضغطة يده على ضلوعي خفيفة هذه المرة. كأنه يخبرني بأنه استمع لقسمي. جذبتني أمي بقوة حتى تركنا المنزل، لتغلق جارتنا الباب خلفنا بعنف.

ظلت أمي تسحبني حتى صعدنا إلى بيتنا. ما أن دخلنا من الباب حتى تنفست أمي لصعداء، ثم تحول وجهها فجأة من شدة غضبها إلى اللون الاحمر وهي تصرخ بي: هل جننتني؟. هل

هذا واجب العزاء الذي أصررت على أن أصحبك لتأديته؟. ما الدافع وراء تصرفاتك الخرقاء تلك؟ أخبريني

قدم أبي، وأخوتي على صوت صرخات أمي، ووقفوا في صمت يتابعون المشهد.

قلت لها بيأس: أنها تكذب يا أمي. أنا على يقين بأن زوجها لم يمت موتة طبيعية. يبدو أنها قتلته.

نهرتني أمي بعنف قائلة: كفاك اتهامات بلا أساس من الصحة. هذا ليس فلمًا بوليسيًا. أذهبي إلى غرفتك وأنسي أمر جيراننا إلى الأبد.

أشار لي أبي بأن أذهب إلى غرفتي دون كلمة، ومن أخوتي من اللحاق بي.

تركتهم غاضبة لأغلق باب غرفتي ورائي. عشر دقائق من الغضب المكتوم، ثم اتصلت بطبيبي لأطلعه على المستجدات.

٩

عند الجرس الثالث للهاتف رد طبيبي بهدوء، على الرغم من رغبته الحميمة في معرفة ماذا حدث معي، وهل أنا بخير؟، ألا أنه أعتاد أن يكون هادئًا معي أولًا. في جمل محمومة السرعة، تسابق بعضها قصصت عليه ما دار في منزل الأرملة.

قال طبيبي بتعجب: هل واجتها حقًا؟. من أين واتكِ تلك الشجاعة؟

قلت له بحزن: هل تهزأ مني؟

ضحك، وقال بمرح: بالطبع لا، ولكني لم أتخيل أنكِ ستواجهينها. لقد كشفتي وجهك سريعًا.

قلت بنكد: هذا غير هام الآن.

سألني باهتمام: وما هو الهام برأيك؟

أجبته بحيرة: الخطوة التالية. ما الذي يجب عليَّ فعله؟

لعشر دقائق من المناقشات التي اسفرت عن لا شيء. ارتفعت طرقات حازمة على باب غرفتي. انهيت المحادثة، وذهبت لفتح الباب، فإذا بأبي يريد أن يحدثني. تنحيت عن

الباب مفسحة له ليدخل. بخطوات رزينة أحبها لما تشع في نفسي الأمان دخل أبي، ثم جلس على فراشي، وقال بمرح: يبدو أنكِ لازلت بملابسك؟. تعالي وأجلسي بجواري، وقصِ عليَّ ما حدث.

جلست حيث أشار، وسردت عليه كل ما كتبته سابقًا. كنت خائفة من أن يهزأ بي ألا أن أبي كالعادة احتواني، وأهتم بما قولته حيث قال: معكِ حق أن تلك السيدة تتصرف بطريقة شاذة. كما أظن أنها تخفي سرًا.

سألته باهتمام: ماذا سنفعل يا أبي؟

رد ببساطة: لن نفعل شيئًا.

ارتسم الاحباط على محياي، فأكمل: سنتركها لتأتي برد فعل لمواجهتك معها.

رفعت عيني وأنا أسأل: وأن لم تفعل شيء؟

اجاب بهدوء: لن نفعل شيء.

وأكمل مسرعًا قبل أن يعود الاحباط لنفسي: ستأتي بردة فعل حتمًا.

ثم أمسك بيدي يوقفني، وهو يقول: هيا يا فتاتي الحلوة بدلي ملابسك، وهيا لنتناول طعام العشاء سويًا.

ابتسمت، وسألته بحب: ماذا تحب أن تأكل؟

قبل جبيني، وهو يقول: أبدلي ملابسك، والحقي بي في المطبخ لنعد العشاء سويًا.

في صبيحة اليوم التالي خرجت من شقتنا باكرًا لألحق بعملي، وعندما انهيت الدرج وجدتني أمام حارس العقار الذي لا يرى ألا في المناسبات كنوع من أثبات التواجد ليس ألا، فلا نقوم باستبداله. ألقى عليَّ تحية الصباح، وسألني أن كنت بحاجته في شيء ما. شكرته وأنا مندفعة في طريقي، وأنا متعجبة منه أننا لا نراه ألا عندما يأتي لتأجير أو بيع شقة ما في بنايتنا. عند هذه النقطة تسمرت في مكاني، ثم عدت مسرعة لأبحث عنه لأسأله. وجدته يخرج من شقة تلك الأرملة، إذن حدثي في محله، لقد أرسلت له ليبيع لها شقتها.

ناديته، فأقبل مسرعًا، وهو يقول بفرح: دائما ما أستبشر بصباحك أنستي.

ابتسم وسألته: يبدو أنه عمل جديد.

ضحك بفرح حقيقي، ثم قال: أجل فتلك السيدة القاطنة بالدور الأول، والتي توفي زوجها منذ أيام تطلب مني البحث عن مشتري. يا له من حظ.

سألته باهتمام لم استطع أخفاءه: ماذا تعني؟

قال بعجب: هذه الشقة قمت بتأجيرها للعديد من الناس لم يزد عمر قاطنها عن الستة أشهر حتى مل صاحبها، وطلب مني بيعها، وقد قمت ببيعها لزوج الأرملة صاحب سلسلة مطاعم منتشرة في مدينتنا، ولم يدم عيشه في هذه الشقة الستة أشهر. يبدو أن بهذه الشقة قوة خفية سوداء.

فأكملت هازئة: تطرد كل ساكن بعد ستة أشهر.

بدأ يبسمل، ويحوقل متلفتًا حوله كأنه يخشي عدو مجهول خفي، ثم قال وهو يركض من أمامي: ارجوكِ أنستي لا تسخري منهم. سامحوها يا سادتي. أنا لا أؤيدها.

ثواني معدودة وأختفي من أمامي، نزل أبي الدرج فوجدني متسمرة مكاني، فنادى عليَّ، والعجب يملأه من وقوفي بمدخل البناية بلا هدف. ابتسمت، ثم مددت يدي له، فامسكها، وأنا

أقول: أنها قصة شيقة تستدعي أن توصلني بطريقك وأنا أحكيها.

ضحك أبي، وهو يقول: هيا يا فتاتي.

ضحكنا بخفة، ثم ذهبنا لنستقل سيارتنا ليوصلني أبي.

١٠

ما أن دلفت إلى مكتبي حتى اتصلت بطبيبي لأقص عليه ما دار بيني وبين حارس العقار. في خمس دقائق اوجزت ما كان، ثم صمت منتظرة الرد لكنه ظل صامت لدقيقتين حتى أني ظننته لم يسمعني، فناديته.

رد بسخط: هلا تركتني أفكر قليلًا فقط. يا لكِ من فتاة ثرثارة. أذهبي لعملك ولنتحدث في المساء.

اغلقت سماعة الهاتف، وأنا ساخطة بشدة، غير أن ذلك الشعور لم يدم طويلًا، فلقد أخذتني دوامة العمل.

في استراحة الصلاة اتصل طبيبي، واستفتح محادثته قائلًا: هل أديتي صلاة الظهر؟

أجبته بنعم في نبرة غاضبة. ضحك بشدة، ثم قال: نحِ غضبك جانبًا، وهيا بنا لما حدثتني عنه صباحًا.

لم أجبه، فأكمل بهدوء: أن ما أخبرك به البواب في غاية الأهمية، ويحتاج لأن نفكر فيما قاله بتمعن.

لم أعلق، فأردف: انظري هذا البواب ربما كان على علم ببعض المعلومات عن تلك الأرملة وزوجها الراحل.

ثم صمت، فقلت متلهفة ناسية غضبي: هذا ما فكرت به، وماذا أيضًا؟

ضحك بمرح، ثم أجاب: هناك احتمالين متساويين بالنسبة لعدم مكوث اي ساكن أكثر من ستة أشهر.

سألته متجاهلة ضحكته التي ذكرتني بغضبي: وما هما؟

أجاب بهدوء: أما أنها على علم بذلك قبل شراءها للشقة، واستغلت ذلك في الترويج بأنها مشئومة، ولذلك توفى زوجها. أو أنها لم تكن تعلم ووجدت في هذه المعلومة طوق نجاة لأثارة الأقاويل عن الشقة لتنفي عن نفسها أي شبهة.

قلت ببساطة مثيرة سخطه: النتيجة واحدة.

رد بضيق: بالطبع لا يا عبقرية، فأما أنها رتبت للجريمة من قبل شراءها للشقة، أو أنها علمت المعلومة فاستغلتها لقتله.

سألته: أنت معي بأنها قتلته إذن. أم أنها يمكن أن تكون مظلومة؟

أجاب بسخط شديد: لا أظنها بريئة تمامًا. هذا يستلزم استجواب البواب لمعرفة كل ما في نفسه.

سألته بتجهم: وكيف ذلك؟

سكت لدقيقة، ثم أجاب: تظاهري بأنكِ تعرفين شخص ما يريد شراء الشقة، واستغلي ذلك في معرفة التفاصيل التي نبحث عنـها.

سألته بضيق: وأن لم أوفق في ذلك؟

أجاب بنفاذ صبر: اعطيه رقم هاتفي كأنه أنا المشتري، وأتركيه لي.

١١

يا له من يوم عمل شاق لا ينتهي. لقد تجاوزت الساعة الخامسة مساءًا، ولم انتهي من عملي على خلاف العادة، فأنا انهى عملي في الثالثة عصرًا، ولكن اتصال من صاحب العمل لمديري بأنه قادم لمتابعة سير العمل، والتأكد من الانتهاء من عملية ما لم نشرع في البدأ فيها، حولتنا إلى آلات تعمل بلا توقف، أللهم إلا وقت الصلاة. ارسلت رسالة إلى أبي أخبره بالوضع حتى لا يقلق.

في تمام السادسة مساءًا جائني اتصال هاتفي من رقم مجهول. بطبيعة الحال تجاهلته، غير أنه ألح في الاتصال بي. اضطرت لأن اجعل هاتفي الجوال على الوضع الصامت بعد نظرة قاسية من مديري. دقت الساعة السابعة، وأنا أغادر عملي. أخرجت هاتفي لأخبر أبي بأنني متوجهة للمنزل. فاجئني الرقم الغريب باتصاله فوق الخمسين مرة. شعرت بالقلق الرهيب، ولكني لم أجرؤ على أعادة الاتصال به لأعرف ماذا يريد.

ركبت الحافلة، فإذا برنين الهاتف متقطع بيدي ينذر بوصول رسالة. فتحتها ليصدمني ما بها. أعدت قراءتها عشر

مرات في محاولة لاستعاب ما كتب. أنها من ذاك الرقم المجهول، وكانت تخبرني بوفاة طبيبي الخاص منتحرًا.

لا يمكن أن يكن ذلك حقيقة؟

هذا تدليس وخداع.

أنه رقم كاذب محتال. لا يمكن أن يموت طبيبي بهذه السهولة. اتصلت بطبيبي، فإذا بهاتفه مغلق. شعرت بالقلق ينهش قلبي. اعدت الاتصال بالرقم المجهول، لتجيبني رسلة مسجلة لأحدي المشافي الخاصة بالأمراض النفسية والعقلية. اغلقت هاتفي مرتعبة. هناك شيء خاطئ في هذا الموضوع.

عدت إلي المنزل لا أعرف كيف سرت في الطريق دون حادثة ما، فعقلي كان في دوامة من الخوف والحيرة من تلك الرسالة العجيبة.

هل توفي أم تلك كذبة رديئة؟

هل حقا توفي منتحرًا؟

وأن كان مات منتحرًا، فما السبب؟

وما علاقة هذه المشفى به؟

وأن كان توفي لغير ذلك من الأسباب، هل مات مقتولًا؟

وأن مات مقتولًا، فمت قتله؟

وما السبب الذي دفع القتلة لارتكاب جريمتهم النكراء؟

هل لهم علاقة بتلك الارملة؟

وأن كانت بينهم، فما الدافع لقتلهم الطبيب؟

وأن كان مات موتة طبيعية، فما الدافع الذي جعل راسل الرسالة ليزيف موته؟

وأن كانت تلك الرسالة كذبة، فما الدافع لها؟

وما الهدف المرجو من تلك الكذبة؟

وأن كان على قيد الحياة لماذا يغلق هاتفه؟

فتح والدي باب شقتنا، فألقيت عليه التحية بآلية، وتوجهت إلى غرفتي.

سألني أبي بحنان: هل تناولتِ طعام الغداء؟

ابتسمت بوهن، وأجبته كاذبة بنعم، ثم استأذنته لأستريح في غرفتي بعد أن أخبرته بأن يوم غد إجازة لي ولكل من تأخر اليوم.

دخلت غرفتي ألوم نفسي لكذبتي تلك، ولكن كيف أخبره بموت طبيبي الذي لم يسمع به من قبل.

١٢

على جمار القلق، واحتمالاته كنت اتقلب في فراشي. امسك بهاتفي بيد مرتعشة. احاول الاتصال به، فأجد هاتفه مغلق، وعلى الرغم من تأكدي أنه سيظل مغلق لم استطع ترك الهاتف، فالامل يحدوني في اتصال منه، أو رسالة تكذب موته.

بدأ الوهن يصب روحي كما أصاب جسدي المكدود، وبدأ التعب يستنجد بالنوم الذي لبى نداءاته، ليزحف ببطء كتمساح يتربص بفريسته. ما أن تمكن من جسدي حتى انطلق صوب مخي ليطفئ أنوار التفكير في خلاياه، فيحل الظلام الدامس لأسقط في نوم عميق يشبه الغيبوبة.

ممر شديد الطول، ذو ارتفاع منخفض، ضيق حتى لتظن أن جدرانه تميل على بعضها في سلام عجيب. أقف في منتصف الممر المظلم لا أدري لما أنا هنا. آلم كاسح في أضلعي اليمنى، أنه هو لقد عاد. صار يقودني إلى نهاية الممر ، أو هكذا ظننت فلا معنى للنهاية والبداية في هذا المكان. صوت ما أعرفه يتردد في الاتجاه المضاد لحركتنا. توقفت انصت له، لقد عرفته أنه صوت طبيبي.

ضغط على اضلعى هذا الطيف ليسحبني في الاتجاه الذي يريد. تحركت ببطء كما يريد، فارتفع الصوت وأصبح مخيفًا يأمرني بأن اترك هذا الطريق الذي اسير فيه. رعب حقيقي ملأ قلبي جعلنى انتفض متزامن مع الصراخ والضغط الكاسح على أضلعي لأجد قدماي تسير برفقة الطيف. خطوات بسيطة لأجد بصيص ضوء في نهاية الممر ، وبسمة من الطيف قبل رجعوه إلى حيث الصوت الذي أراد اللحاق بنا ليخرسه.

صوت نقرات متقطعة يخترق حاجز النوم، لأستيقظ من نومى فزعة. هاتفي بيدي يرسل أشارات استقبال رسائل. خمس رسائل بالتحديد تحمل رقم هاتف طبيبي. أربعة منها تحمل ذات الرسالة (هذا الهاتف متاح الآن)، والخامسة تحمل تهديد شديد اللهجة. تيبست في مكاني من الرعب عصف بكياني.

لنصف ساعة ظلت الرسائل تنهمر من رقمه دون توقف. كنت اطالعها والذهول يملأ حواسي كلها.

ما كم تلك التهديدات المكتوبة!

وما هذه الرسالة الصوتية الصامتة؟

أن الاستماع لصوت الصمت المطبق لأشد رعبًا من الاستماع لصوت المهدد ذاته. تمالكت اعصابي المضطربة، واستجمعت ما بقي في ذاتي من شجاعة، ثم اتصلت برقمه، وكانت المفاجأة أنه مغلق أعدت المحاولة عدة مرات، ولم أحصل ألا على ذات النتيجة، الهاتف مغلق.

ما معنى هذا؟

هناك من يعبث بي هنا.

هل هو قوة شيطانية؟

أم بشري يتنكر في شكل قوة سوداء؟

لا استطيع أن ارجح أيهما أقرب للحقيقة، ولكني أملك الطريقة لاستكشاف حقيقة الامر. اتصلت بابن خالي الذي يعمل في وزارة الداخلية.

في كلمات وجيزة لخص ما قولته: هناك رقم ما يرسل لكِ رسائل تهديد، وعن أعادة الاتصال به تجدينه مغلق. بسيطة ابعثي لي بهذا الرقم، وانتظري مني اتصال في المساء.

شكرته وانهيت. حاولت تجاهل الأمر، وقد ساعدني عدم ارساله رسائل لي على ذلك. كما أن طرقات قوية على باب الشقة أفزعتني، وانستني أمر الرسائل مؤقتًا.

١٣

فتحت الباب فإذا بالأرملة تقف أمامي، وهي متوترة تسألني أن اسمح لها بالدخول.

ادخلتها على استحياء. بخطوات مترددة لا تعرف طريقها سارت حتى توسطت الردهة، ثم وقفت رافضة أن تتحرك أنش واحد. أشرت لها لتتقدم حيث الاريكة لتجلس، ولكنها رفضت بشدة. لمحت من خلال طبقات مساحيق التجميل أثار خمش أظافر طويلة على خديها، ورقبتها.

سألتها بعصبية لم أردها: أهلًا بكِ. هل من خدمة أقدمها لكِ؟

نظرت لي بغل قائلة: لقد جئت إليكِ زائرة.

ثم سألت بشراسة: أم أني غير مرحب بي هنا؟

حاولت الابتسام إلا أن توتر جعلها مهزوزة كصوتي وأنا أقول: بالطبع لا. مرحبًا بكِ في أي وقت جارتنا العزيزة.

قالت بملل، وهى تمرر أصابعها ذات الأظافر الطويلة المملونة على أماكن الخمش برقبتها: لن أعود كذلك بعد أيام قليلة.

تظاهرت بالعجب، وأنا أسألها: ماذا تعنى يا سيدتي؟

أجابت بلا مبالاة: سأبيع شقتي، وألحق بابني في السعودية.

رددت ببعض كلمات المجاملة المتبعة في تلك المواقف. غير أنها فجأة سألتني بنبرة غريبة أثارت فزعي: أتعلمين لماذا أرحل بتلك السرعة، ولا انتظر انتهاء عدتي؟

أزدردت لعابي، ثم أجبتها: لا أدري حقيقةً.

شعرت بغضبها يشتعل في عينيها. أنها تريد أجابة ما، فقلت لها: ربما لأنك تشعرين بالوحدة ها هنا؟

ضحكت بصوت مخيف، ثم قالت بنبرة خافتة ممتلئة بالشر: كلا بالطبع، ولكن لأن شقتي مسكونة بكيانات مظلمة.

لمحت في عيني نظرة عدم التصديق، فسألتني باهتمام: ألم تنتبهي أن لا أحد يسكن فيها أكثر من ستة أشهر؟

أجبتها بهدوء: ليس لي خلطة بالجيران، فلا أدري عن ذلك شيء.

صرخت كمن تمكن من خصمه قائلة: لا تختلطين بجيرانك، ولكنكِ قمتي بزيارتي.

تنحنحت، وقلت مصححة: بل قمت بتقديم واجب العزاء لكِ في فقيدك رحمه الله. هذا حق الجيرة.

زمت شفتيها غاضبة، فكلامي أمات تدفق الكلمات في فمها. شعرة بلذة النصر لاسكاتها، فابتسمت سائلة: ما الذي جعلك تظنين أن شقتك تسكنها الكيانات المظلمة؟

أجابت بحماس زائد كأنها أعدت تلك المحاضرة من قبل قدومها، يبدو أن هذا سبب زيارتها الحقيقي: بعد أن انتقلنا إلى هنا بدأت بعض التغيرات تظهر على زوجي، فاصبح معتل المزاج، كثير الصراخ، نزق فترة مكوثه بالشقة. ظننت ذلك لبعض مشاكل العمل التي لا علم لي بها. لكن بعد موته أخبرني من غسله أنه وجد كدمات وخدوش على جسده في أماكن لا تصلها يده، ولا يمكن أن يكون فاعلها بشر. حسبته يكذب، فأنا لم أرى يومًا على جسده تلك الأثار. كما أن الطبيب الذي أصدر تصريح الدفن لم يجد في الجثة ما يريب، ولكن بعد وفاته وجدتني استمع إلى أصوات مرعبة، ولا أجد شيء في موضعه. كما أني أعاني من الكوابيس، وعندما استيقظ أجد أثار خمش في مواضع متفرقة بجسدي. لهذا أريد بيع الشقة لأسافر إلى ابني. لا استطيع أن ابقي ليوم أضافي هنا.

سألتها بشفقة: وهل وجدتي من يشتريها؟. أظن أن علم أحد بما تقولين لن يقبل على شرائها.

صرخت قائلة: وهذه هي مصيبتي. لقد اتصلت بحارس العقار الذي اسندت له مهمة بيعها، فإذا به يخبرني بأنه لا أحد يريد شرائها. لقد أذاع هذا السر في المنطقة، فعزف الجميع عنها.

سألتها مهدئة: هل أنتِ بحاجة إلى هذا المال؟، أم أنكِ تستطيعين السفر بدون الحاجة لبيعها؟

صرخت في وجهي قائلة: أنتِ لا تفهمين شيئًا.

ثم تركتني مغادرة الشقة. تجمدت مكاني من الصدمة. خمس دقائق مرت على عقلي المثلج قبل أن يستعيد حيويته، ويعمل.

١٤

لماذا أتت في هذا الوقت من الصباح؟

أنـها تعلم أن أمي بالعمل.

إذن هي أتت لأجلي، ولكن لماذا؟

ما هو الغرض الحقيقي للزيارة؟

ألتملأ عقلي بالخرافات مثل حارس العقار؟

أم أن هناك غرض خفي؟

ولكن ما هو؟

قطع استرسالي في الأسئلة صوت انطلاق عجلات سيارة على الأسفلت. انطلقت إلى النافذة كالسهم لأستعلم عن الأمر. فإذابعدد من السيارات تتحرك وراء بعضها محملة بالأثاث خلف سيارة خاصة رباعية الدفع. أنا أعرف تلك السيارة أنـها لجارنـا المتوفي.

كان يشيع السيارات حارث العقار الذي انتبه لوجودي، فقال بعجب: لقد رحلت تلك الأرملة بعد أن باعت شقتها لطبيب شاب قادم من محافظة بعيدة، ولكني لأعجب كيف عثرت عليه.

عدت إلى الداخل دون أن انبث ببنت شفة، والرعب يأكل خلاياي. ارتفع رنين هاتفلي ليزيد فزعي. تحرك بسرعة والتقطه، فإذا بابن خالي هو المتصل.

بعد كلمات الترحيب المعتادة قال لي بتجهم: هذا الرقم الذي أرسلتيه لي موقوف منذ عامين، فلا يمكن أن يكن هو من أرسل تلك الرسائل.

قتلت المفاجأة كل خلية عاقلة بمخي.

دقيقتين من الصمت الثقيل الممتلئ بالفزع.

يا إلهي هل يراسلني كيان شيطاني؟

أم أن الطبيب هو ذاك الكيان؟

وأن كان هو ذاك الكيان، فما علاقته بالطيف الذي يزورني في كابوسي؟

هل هو هذا الطيف؟

وأن كان هو، فما علاقته بتلك المرأة؟

هل هو زوجها المتوفي؟

لا يمكن، فهو يحدثني منذ تلك الحادثة قبل وفاة جاري؟

قطع عليا أفكاري صوت ابن خالي ينادي عليَّ.

سألته بخوف: كيف كانت تصلني تلك الرسائل، إذا كان الخط موقوف منذ عامين؟

رد ببساطة: يمكن ذلك عن طريق بعض المواقع على الشبكة العنكبوتية، والتي تسمح بأرسال رسائل من أي رقم لأي رقم.

جف حلقي، فحاولت ترطيبه بأزدراد لعابي، وقلبي ينبض بالأثارة، وأنا أسأله بصوت مشروخ: وهل يمكن أستغلال تلك المواقع أو غيرها في إجراء اتصال؟

ضحك بملئ فيه، ثم قال: كلا بالطبع. لا يوجد حتى الآن.

يا للكارثة.. هذا يعني ...

وقبل أن استغرق في أفكاري، سأل ابن خالي: هل تريدين شيء أخر؟

قلت بلهفة: أجل شيء هام جدًا.

وبدأت أقص عليه واقعة وفاة جارنا، وتصرفات زوجته العجيبة التي جعلتني أشك في أنها قتلته، ولكني أخفيت عنه تفاصيل كابوسي، وزيارات هذا الطيف في منامي.

وعدني بالبحث، والتقصي. كما أنه أخبرني بمروره علينا بالمساء للمزيد من المناقشة.

١٥

أغلقت الهاتف، وجلست القرفصاء على الأرض، واضعة رأسي بين كفيَّ. عقلي عاجز عن التفكير. الرعب يشل خلاياي الرمادية. الفزع يخفي شمس الحقيقة عني بضبابه السميك. الخوف ينهش في داخلي. وعي يغيب، وأدخل في نفق اللاوعي، ليقذفني إلى عالم النوم لأجدني في ساحة جرداء سوداء الأرض والجدران. سماءها ممتلئة بالسحب الرمادية الرعدية.

على ضوء البرق وجدت فجوة سوداء في الجدار الغربي أمامها يقف ذئبين رماديين يتعاركان. وقفت ارتعش لا أدري ماذا أفعل؟. أدور بعيني في المكان بحثًا عن مخرج من هذه الساحة. كان صدري يعلو ويهبط في سرعة من الخوف ليعب الهواء عبًا ليجابه الادرنالين المنتشر في خلاياي. انتبهت الذئبين لوجودي، فتركا خلافهما، واندفعا نحوي.

ركضت لا أعرف وجهتي، وهم ورائي حتي وجدتني أعبر الفجوة لأجدني في نفق دائري ضيق مظلم، عفن الرائحة، ممتلئ بماء أسن حتى منتصفه. حاولت التراجع فسمعت عواء الذئبين، فقررت أخف الضررين، وخضت في المياه الأسنة

على أمل أن أجد مخرج من هذا العفن ألا أنني وجدتني وجها لوجه مع تنين أسود اللون، ذو حراشيف رمادية، عينين نارية، رأيت ذلك عندما نفث في النار ليحرقني.

قمت فزعة لأجدني في فراشي أعاني من الحمى، وأمي تمرضني، وقلبها يرجف هلعًا، أما أبي فكان يحدث الصيدلية لأرسال الدواء.

أزحت يد أمي بوهن، وحاولت الأعتدل، لكنها أرادت أن تبقيني مستلقية حتى لا يزيد مرضي. تلفت حولي فوجدت الليل قد أقبل منذ مدة ليست بالقصيرة، فهمست بصوت جاف: هل جاء ابن خالي؟

أجابت أمي سائلة: كلا لم يأتي. هل أخبرك بأنه قادم؟

هززت رأسي إيجابًا. دقيقة فقط، وأرتفع رنين جرس الباب. ذهبت أختي لفتح الباب، فإذا به ابن خالي يحمل دوائي الذي أخذه من الصيدلي. سأل عني، ثم دخل بعد أن اعتدلت وأرتديت حجابي.

ناول أمي الدواء، ولكني رفضت أخذه، وسألته عما توصل إليه في موضوع تلك الأرملة.

تنحنح ابن خالي، وحاول التملص من الإجابة بمساعدة أمي، وأبي غير أني تشبثت بمعرفة ما توصل إليه. خشو عليَّ من الأنفعال، فبدؤا بتهدئتي، أما ابن خالي فقال بحرج: لقد تقصيت عن تلك الأرملة وزوجها المتوفي منذ عشرة أيام. أنها لم تغادر مسكنها على الأطلاق، فهي تقضي عدتها، ولن تلحق بولدها إلا بعد أربعة أشهر.

قاطعته سائلة: هل رأيتها؟، هل قابلتها؟

هز رأسه بالإيجاب، فسألته: صفها لى أرجوك؟

رد بهدوء: سيدة خمسينية ترتدي السواد إلا أن حجابها أبيض.

صرخت قائلة: ليست هي أنها أربعينية متبرجة، ووجهها ورقبتها ممتلئ بالخمش. أليس كذلك يا أمي؟. كنتِ معي عندما طردتني. أخبريه بأن من قابلها هي سيدة أخرى.

حاولت أمي تهدئتي، غير أني وجدت في عينها الأشفاق والرعب. بدأت في الأنهيار.

لا يمكن أن يكن هذا صحيحًا.

أنا لا أتخيل كل تلك الأحداث، والشخوص.

هل أعاني من مرض نفسي ما؟

أم أن هذا من فعل كيانات الظلام التي تلاحقني؟

أين الحقيقة؟

١٦

غرس أبي المحقن في ذراعي، وغبت عن الوعي لأستيقظ في غرفة بسيطة الأثاث فقط فراش ومنضدة ومقعد خشبي، نافذة خشبية مغطاه بستائر رقيقة، ولكن السمة الغالبة على الغرفة هي البياض، فكل ما بها أبيض الجدران، الأرضية، السقف، المفروشات حتى أنا أرتدي الأبيض.

فتح الباب ودخل رجل أربعيني يرتدي البياض، وعوينات له بسمة مشرقة، يحمل بيه حقيبة جلدية. جلس على المقعد في مواجهتي، ثم قال: حمدًا لله على سلامتك. لقد أقلقتنا عليكِ كثيرًا.

لم أسأله عمن قلق عليَّ، فأردف: أنا طبيبك الخاص منذ شهرين.

لم أعلق بحرف، فأكمل: أنكِ تعانين من صدمة شديدة جعلتك عازفة عن الكلام بعد مرض عضوي لخمسة أشهر نتيجة الصدمة. أنتِ قادرة على الكلام. لا سبب يمنعك ألا أنتِ.

أدرت وجهي لأواجه النافذة، فأخرج من حقيبته دفتر كبير، وعدد كبير من الأقلام، ثم توجه إلى الباب، وهو يقول: لا أريد

أن أرغمك على الحديث، فهذا شأنك الخاص، ولكن هذا دفتر وأقلام لتكتبي ما تشائين. أن أردتِ أطلاعي عليه فلكِ ذلك.

وها أنا ذا أكتب ما حدث معي منذ كابوسي وحتى الآن.

١٧

-" مرحبًا سيدتي. مرحبًا سيدي. تفضلا بالجلوس"

جلست السيدة المنتحبة بصعوبة، بينما أصر الرجل ألا يجلس. ابتسم الطبيب محاولًا تلطيف الأجواء، ثم قال بهدوء: أعرف مقدار قلقكما على ابنتكما الصغرى. أنها تعاني من صدمة خيانة خاطبها قبل زفافها بأسبوع. لم تحتمل قسوة ما رأت وسمعت.

قالت الأم من بين دموعها: ابنتي الرقيقة الحالمة كم كانت تعشق ذلك الحقير. كانت ترى الدنيا بعينيه. احبته كأنه أول وأخر الرجال. قتلها بفعلته القذرة.

ابتسم الطبيب مشفقًا، ثم قال: ولقد تسبب ذلك في ...

قاطعه الأب سائلًا بفزع: هل هناك كارثة أخرى.

قفزت الأم من مقعدها كالملسوعة سائلة: ماذا تخفي علينا بالله عليك؟

أجاب مهدئًا: لا شيء خطير، ولكنها أختلقت حكاية مفزعة لتعيش فيها. أختلقت شخصية وهمية تتحدث معها، وكيانات مرعبة تطاردها. لقد جذبها عقلها الباطن لمنطقة بعيدة لتجتاز

صدمتها في خاطبها، لقد لجأ عقلها لأصطناع تلك الحكاية حتى يجنبها ما لا تستطيع تحمله.

ازدرد لعابه، ثم قال: أن قانون نيوتن الثاني ينص على أن كل فعل له رد فعل مساوي له في المقدار ومضاد له في الإتجاه. هذا ينطبق على العلاقات الإنسانية كذلك إلا في حالات الأرتباط العاطفي الشديد، فأن رد الفعل يكون مناسب لمقدار العاطفة التي يكنها الشخص للفاعل لا مع الفعل ذاته. كما أن ردت الفعل في أحيان كثيرة لا تكتفي بالتوجه للفاعل بل تمتد للمفعول به، أو لمن حوله، ولربما أصابته بلعنة تجعله يؤلم كل من يقترب عاطفيًا من تلك المكانة التي أحتلها الفاعل.

بكت الأم بصوت مرتفع، وسأل الأب بلوعة: هل في أمل من شفائها؟

أجاب الطبيب: رحمة الله واسعة، وبفضله سيتم الشفاء، ولكني أحتاج لمعاونتكما، وكل من يحبها، ومن له مكانة عندها.

في النهاية،،،

النفس البشرية هشة في مقابلة من تحب.

عندما تعشق تتحول لنسخة مصغرة ممن تهواه.

فإن قتل القلب بالخيانة، فأنه يهرب بلا تتوقف.

تتلقفه دفاعات عقله الباطن.

لتخفي عنه ما لا يستطيع تصديقه.

فتمحى هذا الجزء من الذاكرة.

أو تختلق له حكاية أو عالم ينشغل به، بل يحياه.

تفصله عن الواقع المرير.

وهنا كانت الحكاية أكثر رعبًا من الواقع.

صفاء حسين العجماوي

بعد فجر يوم من أيام شهر يوليو (تموز/ جويلية / يوليوز) انتابني كابوس بشع. أثر عليَّ عضويًا ونفسيًا لمدة تزيد عن أسبوع. كان على تجاوز تأثيره الكاسح عليَّ، فما كان مني إلا أنني، وبمشورة بعد الأصدقاء بدأت في كتابة "فيما يرى النائم" على هيئة حلقات على موقع التواصل الأجتماعي "فيسبوك".